الحصة الثانية: تطورات الأدب المقارن المعاصرة:

الأدب العام/ الأدب العالمي/ دراسات الترجمة/ جماليات الاستقبال الأدبي

1- الأدب العام:

ظهر مفهوم "الأدب العام "بداية ضمن مجال الأدب المقارن، لكنه تطوّر لاحقا ليأخذ معنى جديدا يتجاوز دراسة علاقات التأثير والتأثر؛ حيث أصبح اهتمامه منصبا على البحث في التشابهات بين آداب تنتمي إلى ثقافات متباعدة، حتى لو لم تربطها صلات مباشرة؛ وبمعنى أدق اشتغل هذا المفهوم الحديث على رصد التيمات الكبرى أو القضايا المشتركة بين آداب متعدّدة/ مختلفة دون إثبات علاقات تأثير صريحة بينها ، كموضوع "الرحلة إلى العالم الآخر"، الذي نجده في نصوص من حضارات متنوّعة مثل "ملحمة كلكامش"، "الكوميديا الإلهية"، "رسالة الغفران"، و"المعراج المحمدي"...

فكان هذا التوجه بمثابة تحول منهجي في الدراسات الأدبية التي أضحى معها هدف الأدب العام، هو دراسة التشابهات التي لا تنتج بالضرورة عن التواصل وعلاقات التأثير المباشرة، بل تمثل روح العصر أو التجارب الإنسانية المشتركة. فعمل على كسر وخلخة المركزية الغربية التي حكمت الأدب المقارن في بداياته؛ والتي ركزت بشيء من التعصب على إبراز تأثير الأدب الأوربي- عامة والفرنسي على وجه الخصوص- في غيره من الآداب.

وقد اختلف الباحثون في تحديد العلاقة بين الأدب العام والأدب المقارن. فبينما رأى جيرومنسكي أن تشابهات الآداب يمكن أن تدرج ضمن الأدب المقارن دون إثبات علاقة تأثير، اعتبر بول فان تيغم أن الأدب العام مستقل؛ على اعتبارأنه يهتم بتفسير التشابهات بين آداب كثيرة وفق علل عامة، بينما ينحصر الأدب المقارن في رصد العلاقات الثنائية بين الآداب. أما الناقد المغربي سعيد علوش، فقد عرض هذه الرؤى النقدية في سياق نقده للمدرسة الفرنسية، داعيًا إلى تجاوز النظرة الضيقة للتأثير والتأثر.

وخلاصة القول؛ يعد الأدب العام أداة منهجية تثري الدراسات الأدبية، من خلال فسح المجال لفهم النتاج الإبداعي الإنساني المشترك عبر الزمن والثقافات، حيث تتكرر تيمات كونية في نصوص مختلفة، دون أن يعني ذلك بالضرورة وجود تواصل مباشر بينها.

2- الأدب العالمي:

يمكن إدراج مفهوم الأدب العالمي ضمن اتجاهين متكاملين:

الأول كما صاغه "غوته" الذي رأى أن الأدب لغة إنسانية مشتركة تعبر بها كل الشعوب عن قضاياها وقيمها (كنا قد تطرقنا إلى وجهة نظر غوته بالتفصيل في السنة الماضية). والثاني يعني خروج النصوص الأدبية من إطارها القومي لتصبح معروفة ومقروءة عالميا، فتتجاوز حدود اللغة والثقافة الأصلية، لتصبح جزءا من التراث الإنساني.
مثل النصوص الأدبية التي بلغت شهرة عالمية:ك **"ألف ليلة وليلة"، "الكوميديا الإلهية"، "ملحمة كلكامش"، "دون كيشوت"، "شكسبير"، "رباعيات الخيام"، وأعمال "ماركيز"، و"كويليو** "وغيرها، وهي أعمال تميّزت بجماليات فنية،

وطرحت قضايا إنسانية كالحب، الحرية، السلام، والبحث عن الخلاص، مما أهلها لأن تكون منتشرة على نطاق واسع بين قراء ينتمون إلى ثقافات مختلفة. فصار "الأدب العالمي" يمثل طموحا لفهم مشترك بين الثقافات، عبر أعمال تجاوزت محليتها (حدودها الجغرافية/ القومية)، وأصبحت تعبّر عن الوجدان الإنساني المشترك.

3- دراسات الترجمة:

أدّت الأزمة التي واجهها الأدب المقارن إلى مراجعة شاملة لمناهجه وفتح آفاق جديدة، أبرزها الاهتمام بـ "الأدب العالمي "و"دراسات الترجمة". وقد مثّلت الترجمة بوابة مهمّة لفهم العلاقات الثقافية بين الشعوب بعيدا عن علاقات التأثير والتأثّر.

وقد برزت "دراسات الترجمة "كمجال مستقل داخل الأدب المقارن وخارجه؛ فاعتبرت الترجمة وسيلة تواصل بين الثقافات، أين ينظر إلى النص المترجم بوصفه **"نصًا بينيًا "** (بيني يعني متوسط بين شيئين) لا ينتمي تماما لثقافته الأصلية ولا للمستقبلة. هذا المفهوم أفسح المجال أمام دراسة الترجمة نظريا ومنهجيا.

والجدير بالذكر أن "دراسات الترجمة" قد ازدهرت في سبعينيات القرن الماضي، وأصبحت مجالا أكاديميا له مؤسساته، وأبحاثه. حيث انتقلت هذه الدراسات من هامش اهتمام البحث الأدبي المعاصر إلى مركزه.

ويمكن القول إن كثيرا من المشتغلين بالترجمة هم في الأصل مقارنون، تحوّلوا إليها بسبب غياب الاهتمام بالترجمات في الدراسات السابقة، إذ كانت المقارنة في بداياتها تقتصر على النصوص بلغاتها الأصلية، مهملة الترجمة تماما، خاصة في النموذج الأمريكي الذي كان يرى الترجمة عائقا أمام دراسة "القيم العالمية."

ومع اتساع الاهتمام بالترجمة في الثمانينيات والتسعينيات، بدأت تظهر دراسات تركّز على خصوصيات النص المترجم، وتتعامل مع المترجم بوصفه فاعلًا ثقافيًا يعيش بين لغتين وثقافتين، مما أضفى بعدا إنسانيا وثقافيا عميقا على الترجمة.

وقد اكتسبت دراسات الترجمة في بلدان العالم الثالث أهمية خاصة، إذ شكّلت وسيلة لنقل المعارف، والانفتاح على الثقافات الأخرى، وإعادة قراءة الآداب المختلفة بدافع الحاجة إلى التثاقف واستيعاب منجزات الآخر.

وهكذا أصبحت "دراسات الترجمة" جزءا لا يتجزأ من البحث المقارن المعاصر، ولها أهمية كبيرة في فهم التحوّلات الثقافية الكبرى، خاصة في العالم العربي وبلدان العالم الثالث، حيث يفترض أن توظف هذه الدراسات لخدمة الثقافة المحلية والانفتاح الواعي على الآخر.

4- جماليات الاستقبال الأدبي:

من أبرز الاتجاهات الحديثة التي عرفها مجال الدراسات الأدبية المقارنة، بروز اهتمام متزايد بما يعرف بـ"تلقّي النصوص الأدبية" أو "جماليات الاستقبال"، وهي مقاربة تهتم بكيفية استقبال نص أدبي أجنبي داخل ثقافة مختلفة، وتحليل الظروف التي تحيط بذلك الاستقبال، وتأثيراته المتعددة سواء على القرّاء، أو النقّاد، أو المبدعين المحليين. ويعد هذا التطور امتدادا طبيعيا لتحولات عرفتها

نظريات القراءة والتأويل، التي انتقلت من مركزية النص إلى مركزية القارئ، حيث لم يعد النصّ يفهم بوصفه بنية مغلقة أو مرجعية ثابتة، بل بوصفه مجالا مفتوحا تتعدد دلالاته بتعدد القراء وسياقاتهم.

وقد ساهمت "نظرية التلقّي الأدبي" التي تأسست على يد نقاد "مدرسة كونستانس" الألمانية، وعلى رأسهم "هانس روبرت ياوس" و"ولفغانغ إيزر"، في إحداث قلة نوعية في مقاربة الظاهرة الأدبية؛ حيث سعت إلى تجاوز القصور الذي اتسمت به الدراسات الأدبية السابقة التي كانت تفصل بين الجمالي والتاريخي، وتغفل أحيانا عن السياق الثقافي والاجتماعي للنصوص. بالنسبة لـ"ياوس"، فإن تاريخ الأدب كما تمت دراسته تقليديا لم يكن كافيا، بل افتقر إلى الشرعية المعرفية، لأنه أغفل علاقة الأدب بالتاريخ العام وبالتحوّلات الفكرية والاجتماعية.

وقد تفاعلت الدراسات المقارنة مع هذا الطرح الجديد بشكل عميق، لتتبنّى بدورها مفهوم "الاستقبال الأدبي" كأداة أساسية لفهم العلاقات بين الآداب، ليس فقط من زاوية التأثير والتأثر المباشر، بل من خلال دراسة كيف تُعيد ثقافة ما إنتاج نصوص أجنبية وفق أفق توقّعاتها الخاصة. ونتيجة لذلك، برز في الأدب المقارن اتجاهان رئيسيان: أحدهما يدرس التلقّي النقدي، أي كيف يستقبل النقّاد نصوصًا أجنبية ويؤوّلونها، والثاني يهتم بالتلقّي الجماهيري والإبداعي، أي كيف يتفاعل الجمهور العادي أو الكتّاب مع تلك النصوص، وما ينتج عن هذا التفاعل من نصوص جديدة أو رؤى نقدية مبتكرة.

من الأمثلة التطبيقية على هذا الاتجاه، ما قدّمه الباحث المغربي محمد الدّاهي في دراسته حول "التلقّي العربي لرواية دون كيخوتي"، حيث جمع نماذج من تلقّي هذا النص الإسباني سواء على المستوى النقدي – لدى شخصيات مثل محمد مندور وعز الدين إسماعيل – أو على المستوى الإبداعي لدى كتّاب مثل عبد الفتاح كيليطو وواسيني الأعرج. وقد خلص إلى أنّ الرواية الإسبانية أثارت اهتمامًا كبيرًا في الوسط العربي بفضل تعدّد مستوياتها السردية وثراء عالمها التخييلي، مما جعلها مجالًا خصبًا للتفاعل والتأويل من منظور عربي مختلف.

هذا التوجّه لا يقتصر على العالم العربي، بل له جذور في التجربة النقدية الفرنسية كذلك، حيث شهد مؤتمر بوردو عام 1970 تحوّلًا مهمًا في طريقة تناول الأدب المقارن. وقد أشار "روبير إسكاربيت" إلى ضرورة التخلّي عن الرؤية التقليدية التي تركّز فقط على النصوص والكتّاب، داعيا إلى دراسة العوامل غير النصية المحيطة بالنص، مثل السياق التاريخي والاجتماعي والسياسي، وهو ما تقدّمه سوسيولوجيا الأدب، باعتبارها علما يدرس العلاقة بين النص والواقع، ويوفّر أدوات مهمة لفهم عمليات الاستقبال والتأويل.

في ضوء هذا كلّه، يمكن القول إنّ الأدب المقارن شهد تحولا منهجيا كبيرا، انتقل بموجبه من دراسة العلاقات الخارجية بين النصوص (كالاقتباس والتأثير) إلى دراسة ديناميكية الاستقبال داخل الثقافات، وكيف تتغيّر دلالات النصوص تبعا لاختلاف القرّاء والسياقات. وقد وفّرت نظرية التلقّي للأدب المقارن أدوات تحليلية جديدة حرّرته من القيود التقليدية، وفتحت أمامه مجالات بحثية أكثر تنوّعا وعمقا، ما ساعده على ترسيخ مكانته ضمن الدرس الأدبي المعاصر كحقل معرفي متطوّر، يستجيب للتحديات الثقافية والتحوّلات الفكرية المتسارعة.